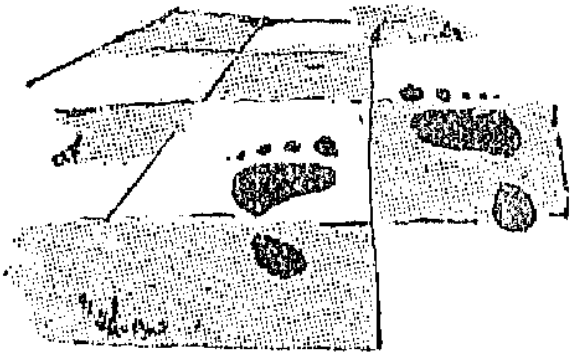

قبل أن أبدأ السرد أقدم اعتذاري الى بطل القصة — عمى ، وحماى — « طه السباعي باشا » لأني لم أستأذنه فى النشر راجياً اياه ألا يصدر بياناً يكذبنى فيه .. لسبب بسيط .. هو أن الناس تعلم تماماً أنه ليس هناك أكذب في هذا البلد . . من بيانات التكذيب .

في بيت عمك ..

القصة والعربة عائدة من الإسكندرية تنهب الطريق الصحراوى نهباً ، والسائق ينتهز فرصة سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد السرعة إلى ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت تتلوي فى طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق مصلحة المجارى ، ومن آن لآخر تعترض العربة علامات الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة فى إحدى حفرات المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .

ووصلنا أخيراً إلى البيت فى منشية الطيران . . متعبى الأعصاب منهكى الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة إلى باب البيت وأخذت أتحسس ثقب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه المفتاح ثم دفعت الباب . . وبدأنا نتلمس طريقنا فى حذر وخشية ، وسمعت العم يقول :

— أكباس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسى الموجود أسفل السلم . . لقد وضعتها بيدى قبل السفر .

وبعد برهة قصيرة كنت أضع الأكباس فى محلها الواحد بعد الآخر .

كان نزع الأكباس هو أول شيء يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس فى أسلاك الكهرباء فينتج عنه ـ لاسمح الله ـ حريق يودى بالبيت . . وكان ثانى شيء هو إغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكباس إلى محلها حتى أضاءت الكهرباء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة .

وقبل أن أطفىء اللمبات التى لانحتاج إلى ضوئها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلا فى أنحاء البيت ، وهو يلقى عليه نظرة إعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها إحدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيراً قال وهو يهز رأسه فى خليط من تعجب وأسف وغبطة :

ـــ أنظر . . لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعى أنا الآخر على أقرب شيء إلىّ وقلت موافقاً :

ـــ أجل ! لا أثر للتراب .

ـــ شهران . . والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب . . ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم . . مجانين ، مصابون بجنون النظافة . . إنهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، إنها عندهم هواية ، أو طريقة لإغاظتنا والتنكيل

بنا . . وإلا فما معنى تنظيف الشيء النظيف ؟ . أتعرف أنهم في عز الشتاء يدخلون الخادم يومياً بجردل المياه لمسح الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم عن هذا الجنون عبثاً ، حتى انتهى بي الأمر إلى أنه ليس هناك وسيلة إلا بإزالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت إلى حملته عليهم — أو على الأصح عليهن — وأنا أؤمن مخلصاً على كل فقرة فيها .

وكانت هم . . أو هن . . هذه عائدة بالطبع على أهل البيت من النساء . أعني زوجته وزوجتي ، أو بعبارة أخرى حماتي وابنته .

وكنا متفقين تماماً في مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين تماماً أن أهل البيت من الحريم مصابون — بلا جدال — بداء النظافة . . يؤيدنا في ذلك زوج الإبنة الأخرى . . عديلي وابن عمتي الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذي لم تعد له في حياته إلا أمنية واحدة . . وهي أن يهيء الله له فرصة الاستمتاع بحرية الفوضى والقذارة ، والذي فكر فعلا في أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظفها زوجته ، وشقة يعيش فيها مستريحاً كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .

ولقد كنا — أنا والعم — أسبق منه إلى تحقيق هذه

الأمنية . . وهى أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والأتربة والقذارة .

كانت عودتنا من الإسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء بعض المهام فى القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق مايقرب من أسبوع .

وكان فى هذا الأسبوع كل الكفاية ، لنتحرر من قيود النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيث فى الدار فساداً . . وأقول الحق ، أن العم العزيز أثبت جدارة فى هذا المضمار يستحق عليها وساماً وأثبت أنه لايشق له فى ميدان الفوضى والهرجلة والغبار — غبار .

لقد فاز علىّ فى سباق الفوضى ، فوزاً مبيناً . . جعلنى أيأس من الاستمرار معه فى ميدان السباق . . بل جعلنى أكره — فى مدى يومين — الفوضى التى كنت أتوق إليها منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت إلى إنسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لألم شعث ما فرق ، وأنظم ما لخبط وما بعزق .

لقد وصلنا فى المساء حوالى الساعة الثامنة . . ولم يحاول أحد منا الخروج . . فكلانا مبكر فى نومه . . وزادنا التعب

رغبة فى النوم وزيادة فى التبكير ، فلم تدق التاسعة حتى كان كل منا قد آوى إلى فراشه .

ومع ذلك . . وفى مدى تلك الساعة التى قضيناها فى الدار منذ الوصول حتى النوم . . أعان الله العم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من الفوضى والهرجلة . . كدفعة أولى .

وفى الأيام التالية بدأ التفنن وإخراج الروائع والآيات .

لم نكن نلتقى إلا فى الصباح وفى المساء ، وقت الصحو أو النوم ، وكان كلانا يضرب طول النهار فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا نكاد نستقر فى الدار — ونحن على حال من اليقظة — إلا لماماً . . ومع ذلك — ولا أدرى متى ولا كيف — تمكن العم من إخراج روائعه وإشاعة الفوضى المثالية والتخريب النموذجى فى أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب «والتوسيخ» أجد لزاماً علىّ وإحقاقاً للحق ، ووضعاً الأمور فى نصابها أن أذكر ما قمنا به من أعمال التعمير والإعاشة .

كان أول مافعلنا . . غير وضع أكياس الكهرباء وفتح محبس المياه ، هو تشغيل الثلاجة وملء زجاجات المياه التى بها وشراء كمية من العنب والمانجه وصندوق بيبسى كولا ،

ووضعها فى الثلاجة على سبيل التموين، وخزن الزاد والزواد .

وكان هذا الزاد والتموين هو العامل الأكبر فى إشاعة الفوضى فى البيت ، والمادة الأساسية التى أعانت العم على رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر للأتربة . ولكن الذى حدث — وبعون من الله وبمساعدة العم — هو أننا لم نكد نستقر فى الدار يوماً أو بعض يوم حتى وجدنا الأتربة تعلو وتتراكم . . وإذا بالحجرات قد أضحت أشبه بالخرائب .

وهكذا وجد من الأتربة الأساس الملائم .. أو « الباك جراوند » المناسب .

لقد كست الأتربة كل مافى البيت .. أعطته لوناً رمادياً مغبراً لا يكاد يستبين منه لونه الأصلى . . اللهم إلا من خلال آثار الأقدام المرسومة على الأرض ، والتى انتقلت أتربتها فاستقرت فى أقدامنا ، أو من خلال الرسوم الأخرى التى انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو الأرض ، فقد كان كل شىء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش فى الصحراء .

وفوق هذه الأتربة بدأ المنظر الرائع الآتى :

إحدى عشرة زجاجة بيبسى كولا فارغة مستقرة فى كل مكان يخطر على البال . . واحدة فوق الفراش ، واثنتان تحته ، وواحدة فوق المدفأة ، واثنتان فى داخلها ، وواحدة فوق المنضدة ، واثنتان متدحرجتان على بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلما جلسنا إلى المنضدة .. وهكذا كانت الزجاجات الفارغة تطالع البصر فى كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد . . أما غطياتها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنياشين . أما الواحد الباقى فهو مازال محشوراً فى فتاحة الزجاجات . . لم يفكر أحد فى نزعه من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الإحدى عشرة زجاجة — أو الأحد عشر كوكباً — سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب من بذور وقشور وبقايا عنب عفن .. هذه الأطباق كانت من قبل مرصوصة نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب فغسل فيها العنب ، وبقيت هى دون أن تغسل . . سوداء « ملحوسة » لزجة .

تلك هى بقايا العنب . . تعاونها فى إعداد تابلوه الفوضى والقذارة .. مخلفات المائدة . . بذورها « المبدورة » فى أنحاء

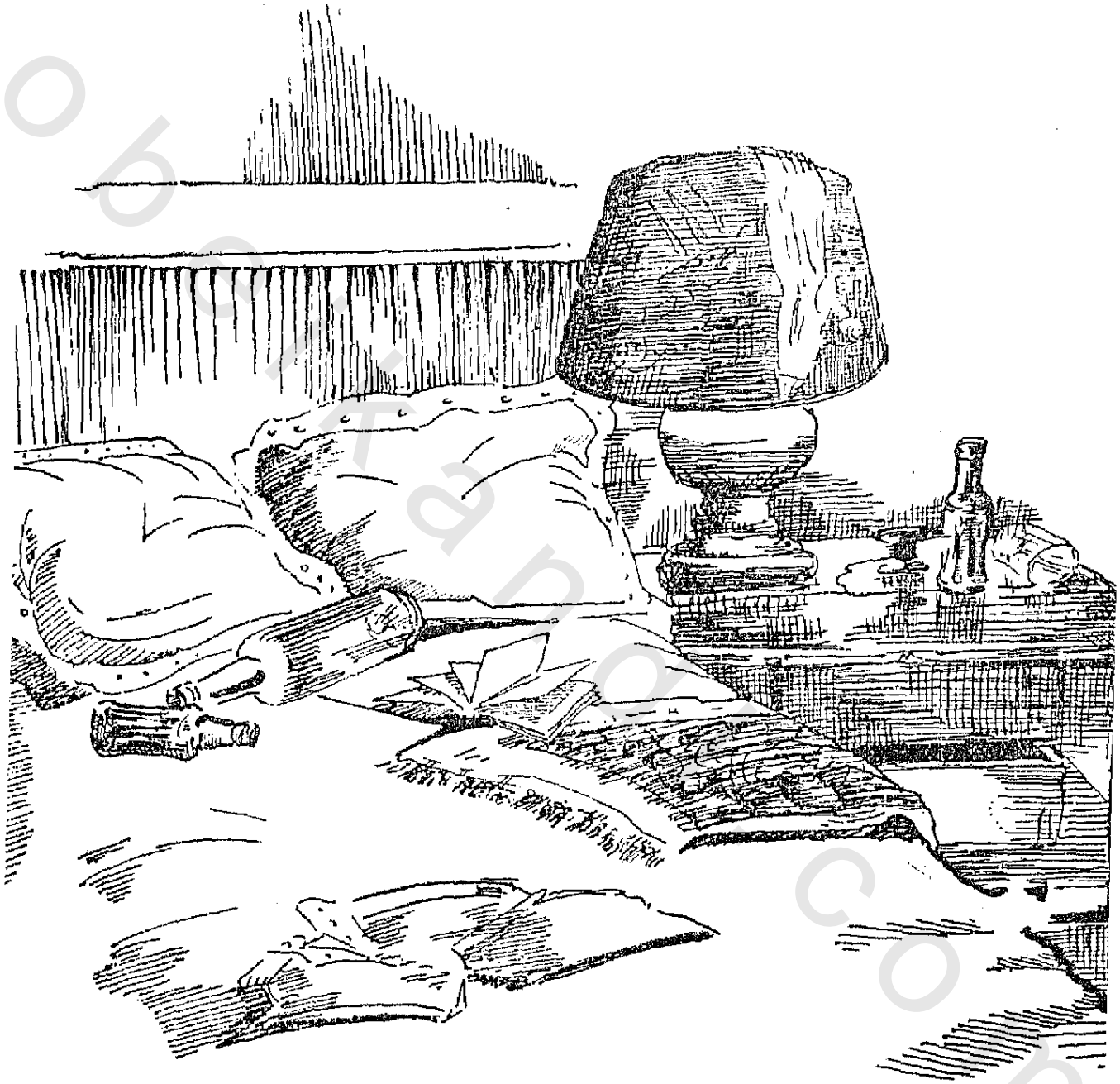

البيت كأنما قد انقلبت أرضه حقلا لزراعة المانجه ، وبالقشور الملقاة هنا وهناك وبماء المانجه السائل فى لزوجة على المنضدة والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات العجيبة تجد فردتى الحذاء والشراب . . مستقرة فى فراقها الخالد . . ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفرفة المتسابقة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة التى كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئاً فريداً . . كان لابد من أن تكسر ملة السرير — دون أن يفكر أحد منا بالطبع فى إصلاحها — فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح إلا للدحرجة والدأجة . . ويعلم الله كيف ينام العم العزيز .

وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة . . تحتاج إلى بعض الموسيقى لتكون تامة المعانى كاملة الإخراج .

وقدم الموسيقى فى هذا المنظر الفوضوى صنبوران للمياه . . صنبور تلفت جلدته فأخذت المياه تنسكب منه النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنبور الآخر ، لست أدرى ماذا أصابه حتى أخذ يزن بصفة مستمرة كأنه الناى أو صفارة الإنذار العاطلة .

هذا هو التابلوه المترب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشباشب ـ وكان هذا من ضمن أعمال التعمير ـ بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأتربة وتعذر علينا أن نجد الشباشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش .

وأخيراً انتهت أعمالنا التى حضرنا من أجلها إلى القاهرة وعزمنا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقذارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحريم حتى نتشفى منهن وحتى نريهن كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأنى العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة . حتى نقطع الطريق فى «طراوة» الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة الرابعة والنصف صباحاً وطلب منى أن أجهز نفسى من الليل وألا أنسى شيئاً حتى لا أسبب له عطلا فى الصباح ، وأعطانى محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر . . ولم ينس أن يذكرنى بمحبس المياه . . وأكياس الكهرباء .

وجهزت حقيبتى وأعددت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى بإحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحاً

استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ . . وسرعان ما حلقت ذقنى وارتديت ملابسى . . وأصبحت على أهبة الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسى حتى آخذ كل ما أود أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب ـ بنسيانى حاجة ما ـ أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو إلى الحديقة فهز شجرة الجوافة وجمع ماسقط من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا فى العربة . . ونزعت أكياس الكهرباء . . وأخذت أتحسس طريقى إلى الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت الباب بالمفتاح ووضعته فى جيبى . . وهممت بركوب العربة عند ما صاح عمى :

ـ إنتظر . . لقد نسيت العصا .

وكان علىّ أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب وأن أضع الأكياس وأصعد إلى أعلى فأحضرها له .

ودارت الفكرة فى رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض الخجل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه هو الذى نسى . . رغم أنه حذرنى من النسيان وعلمنى الحذر فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

— هيا بنا .. نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعى للعصا .. وأظن أنه يوجد غيرها فى الإسكندرية .

واتخذنا مجلسنا فى العربة ، وأخذت فى التحرك بعد أن تنازل عن العصا حتى لا يكون سبباً فى تأخيرنا بضع دقائق .

ونظر فى الساعة وقال :

— الساعة الخامسة إلا ثلث .. موعد مبكر .. أظننا نستطيع أن نصل — بالراحة — إلى البيت فى الساعة التاسعة ؟

وصدقت على قوله بقولى :

— أظن ذلك إذا لم يحدث عطل .

— إن شاء الله لا يحدث شىء .

وكنا قد بلغنا — عند ما قال قوله هذا — بيت مكرم باشا وبينه وبين بيتنا ما يقرب من محطتى ترام .. ولكنه لم يكد يتم قوله أو على الأصح تمنيه ودعوته حتى صاح كأنما قد تذكر أمراً هاماً :

— لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتمهل السائق بعض الشىء .. وتوقعت أن يأمره العم بالعودة ، ولكن الفكرة دارت فى رأسه مرة أخرى .. وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر الشيكات .. وبين محاضرته عن ترتيبات السفر ، وعدم النسيان ، وعدم الرغبة

فى التعطيل . . وأخيراً صاح بالسائق :

— سوق على طول . . لست فى حاجة إلى الدفتر . . إن معى من النقود ما يكفى ، ولا أظننى سأحتاج إليه .

وهكذا مرت سليمة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت العربة فى طريقها إلى شارع الهرم . . وحمدنا الله على أن ما نسى كانت أشياء بسيطة . . ولم يكن هو — على حد قوله — فى حاجة إليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلى . . ووصلنا إلى ميدان الإسماعيلية ، وعبرنا كوبرى قصر النيل ، وقد اضطجعنا فى مقاعدنا مستريحين هانئين ، نحسب فى أذهاننا الساعة التى سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة إلى حد أنها ستفاجىء الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل إلى الأمام . . ويصيح بلا تردد ولا تفكير :

— موسى . . دوّر ، عد بنا إلى البيت .

وتلفت إليه فى دهش شديد ، متسائلا عما حدث . . فأطرق برأسه ، وقال فى يأس :

— لقد نسيت حقيبة ملابسى .